للعدول عن قيم المجتمع السائدة عبر مجموع التصاميم والرؤى الفكرية التي تعتمد التأمل وسيلة للتخطيط، وعليه أراد من الحدث المذكور أن يُعايش من جديد عبر التأويل النقدي رغبة في إحياء متواصل للمعنى ودلالة الوضع الفلسفي. إنّ الآيديولوجي واليوتوبي نشاط فكري يحمل رؤية نقدية واعية على الرغم من انتكاس المشروع السياسي لابن طفيل وهدم المدينة الفاضلة، تبقى الشفرتان ظاهرة أدبية فنية من حيث الممارسة الأسلوبية البارعة لرسالة حي بن يقظان، التي تُعدّ أنموذجاً للفكر والمعرفة من حيث اشتباك الحقول الابستيمية والمفاهيم الإدراكية التي جاءت في قالب فلسفي علمي بطريقة تعليمية أخّاذة، قد شكّلت عملية إنتاجية وحركة تفاعلية للنص.

تحمل مدونة ابن طفيل هاجس البحث عن الحقيقة، والحقيقة علم ومعرفة، وهي بذلك عمل إنساني متطوّر في سبيل العيش في العالم عبر استعمال الأشياء، فالمعرفة تحمل ألفة الذات في الوجود، وهي عمل إماطة اللثام عن الطبيعة لتحليل الحقيقة كتصوّر للموجود أو كشف للمحجوب، وذلك لا ينفصل عن آليات إنتاجها والحقيقة هي علاقة بين الذات والموضوع من خلال تكوين وسط التفكير، وتشكيل صعيد الفهم وفتح مجال العمل والتواصل، فالمرء يصنع ذاته ويمارس وجوده عبر لعبة التفكير وتوليفات الفهم والتأويل.

مجلة الكوفة

قراءة القراءة
النقاد ونجيب محفوظ
لعلي بن تميم

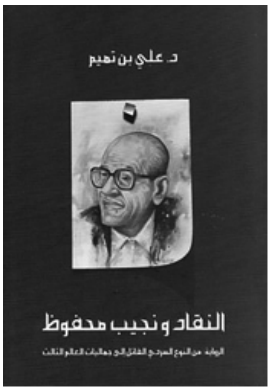

إنها لمهمّة مشوّقة وعسيرة أن تكون بين كاتب عبقري ونخبة من نقّاده اللامعين، بين نجيب محفوظ ونقّاده، بين كاتب «إمبراطور ... ذي رؤية كلية»، بتعبير إدوارد سعيد في مقاله «قسوة الذاكرة»، متعدّد الوجوه، ونقّاد لا يرون كلّ وجوهه، فيختصمون في أيّ وجه هو الوجه الحقّ لهذا الكاتب المتلوّن، الواقعي لكن الساحر، الذي «خبط الدنى والناس طرّاً» فكان هو الدنى وهو الناس.

وسط هذا المُشتَجَر، وضع علي بن تميم روحَه وحماستَه، وأفكارَه، وطفق بعُدّة باحث جادّ يقول كلمتَه التي بدت نافرة منذ العنوان، فما الذي تعنيه صفة «القاتل» وعبارة «جماليات العالم الثالث» المرفقة بالعنوان الفرعي المثير لكتابه النقاد ونجيب محفوظ: الرواية من النوع السردي القاتل إلى جماليات العالم الثالث؟ إنه كتاب جديد يضاف إلى «المكتبة المحفوظية»، أو «الخزانة المحفوظية»، كتاب متشعّب، ومنهجه حرّ يراوح بين الانضباط والخروج على الانضباط، بين الإطناب والإسهاب في قضايا والمرور العابر على

قضايا أخرى، إنه اقتراب من الموضوع وابتعاد عنه لفكِّ استغلاقٍ ما، وجلاء وضع إشكالية ما.

إنه كتاب يقرأ القراءات الأخرى، فهو قراءة للقراءة، ونقد للنقد، رغم تمييز الكاتب بين هذه المصطلحات، قراءة ارتفعت لدى الناقد إلى مهمة في كتابه هذا، مهمة تميل إلى التقويض. فالمهمة العسيرة التي تبنّاها الناقد تبدأ ببيان أن النقد يقوّض نفسَه عبر وعي النقدِ نفسَه، والتركيز على ذاته. هذا البيانُ التقويضيّ تأتي به سيرةٌ موجزةٌ لنظريات التلقي وأنواع القرّاء النصّيين، لكنها سيرة تريدُ أن تبنيَ مدخلاً أساسياً للنقد الشارح meta-criticism، وهدف الناقد من وراء طرح النقد الشارح هو السعيُ إلى تأكيد هذه الفرضية المهمّة التي ستشدّ مفاصلَ الكتاب برمته، وهي أن النقد الذي يتناول النقد، لنقل النقد الثاني حين يعالج النقد الأول، يطرح بطريقته الخاصة رؤية للأعمال الإبداعية التي قاربها النقد الأول، فيقوّض مسار الفرضيات النقدية، ويصحّحها، ويبني من ركام النقود رؤية أخرى. إن مهمة الكاتب هنا، في حدود قراءتي ورأيي، كانت مهمة مضاعفة تقتضي عيوناً أكثر عدداً وسَعَةً للإحاطة بعالم نجيب محفوظ، عالمه الذي يبنيه نجيب محفوظ نفسه عبر أعماله الغزيرة، وعالم نجيب محفوظ الذي يبنيه نقادُه بأعمالهم الغزيرة أيضاً.

إذن، كم من الأعمال كان على مؤلف النقاد ونجيب محفوظ أن يقرأ، ويحاور، ويستنتج؟ إن قائمة مصادر المؤلف قائمة غنيّة لكل عين أكاديمية، وهي تزيدُ الكتابَ عموداً ثالثاً من أعمدة مصادره. فبعد أن نوّهتُ بمكتبة نجيب محفوظ، عالمه المبنيّ من نجيب محفوظ نفسه (أعماله)، وعالمه المبنيّ من نقاده، ثمة أيضاً عالم من الرؤى النظرية التي استعملها الكاتب لبناء جسم كتابه عظماً ولحماً ودماً، وقد لاحقها بصبر في اللغتين العربية والإنجليزية، والملاحظ أنه أحياناً يستعمل بعضَ المصادر الإنجليزية بلغتها الأصلية رغم توفر ترجمات عربية لها، وقد يكون هذا التدبيرُ داعياً من دواعي الدقة، لكنه أحياناً يقوم بمهمة عرض كتب غير مترجمة إلى العربية، وتأثيرها غير موجود أو معروف في النقد العربي، مثل حالة كتاب هارولد بلوم المشهور The Western Canon، وكتاب أنواع الأدب لفولر (النقاد ونجيب محفوظ، ص٩٧). ويبقى سؤال عن جدوى مثل هذه العروض التي بدت أنها ترهق الكتاب، لا سيما أن المؤلف نفسه يعترف أن منظور بلوم مثلاً لن ينفعه في قراءة محفوظ (ينظر، ص٩٩). وسيمضي الكتاب على هذا النحو من الإسهاب والتكرار، وأراني أميل إلى القول إن الكاتب مسكون بالحنين إلى ذلك الأسلوب المتساهل في الكتابة، الذي يحرص على الإعادة لتذكير قارئه بما قيل سلفاً. فالأفكار تقال مرات عديدة، والتحليلات أيضاً، والأمر يمتدّ حتى يطول تكرار المعلومات من مثل أن أحمد لطفي السيد هو خال محمد حسين هيكل (ينظر ص١٢٦ وما بعدها)، أو أن «نجيب» اسم قبطي (ينظر ص١٤٢ و ص٢٢٨).

إن أنواع القراء، والقراءات المتنوعة، وإساءة القراءات، ونظريات البنيوية وما بعدها، كلّ ذلك مطبوع على نسيج الكتاب، متخلّل في مفاصل نجيب محفوظ ومفاصل نقاده. في الواقع، يعرف كلّ من تابع تطبيقات

النقد العربي للمناهج الغربية عسرَ، إن لم يكن فشلَ، نسج الرؤية المنهجية في الموضوع الأصلي للناقد. ولذا دأبتُ، في كلّ عمل عربيّ يتبّنى التطبيق أو الاستئناس بمناهج الغرب، أن أراقب هذه المهمة العسيرة، بما في ذلك كتبي أنا. لأن الملكة النقدية تكون في أجلى صورها في هذا الميدان، ميدان مهارة استعمال المنهج أو حتى الفكر الغريب وتبيئته في مجال آخر، غريب هو الآخر. ويلوح لي أن كتابَ علي بن تميم فَرَشَ نجيب محفوظ ونقاده والنظريات الغربية وبنى منها بناء خاصاً، يقوّض أبنية الآخرين لعالم نجيب محفوظ، يأتي كلّ بناء سابق ليفرد له فحصاً، وواحداً إثر آخر، يقلّب أفكارهم ليرى ما يمكن قولُه في ضوء ما أوضحه سلفاً من قراءات وقراء، فنقاد نجيب محفوظ هم، في الأخير، قراء نجيب محفوظ، بعضهم قرأه بوثوقية فيها من الإسقاط والأحكام المسبقة ما يقوم مهمةً لكتاب علي بن تميم، مهمة في التقويض، بما في ذلك نقاده الذين وظّفوا آراء نجيب محفوظ نفسه في أعماله عبر حوارات ولقاءات، مثل قراءة عبد المحسن طه بدر في كتابه الرؤية والأداة. آخرون قرأوا نجيب محفوظ بـ«إساءة» يكشفها الكتاب، ويضعها مهمة له، لكنّ «إساءة» القراءة قد تكتسب مشروعية في ظلّ نظريات تتيح إمكان تعدّد القراءات، وحرية تحديد المعنى من القارئ، كمقابل لاستبداد المعنى الوحيد، أو قصدية المؤلف، لكن كتاب نجيب محفوظ ونقاده يثير الريبة في مثل هذه القراءة، أو إساءة القراءة، أو التأويل، في رأيي. إنه في الأقل يثير الريبة في التأويلات المتمخّضة من إساءات القراءات، ومثاله على ذلك قراءة سيزا قاسم «ميرامار والنكتة: خواطر (ينظر، ص٢٦). لكن يبدو أن المؤلف يغضّ الطرف عن مسألة أن ما يقدّمه لا يعدو كونه صورة يرسمها لمحفوظ كالآخرين، قد لا تستدعي ضرورة نعيَ صور الآخرين؛ تلك التي يسميها «مخططات» (ينظر، ص٣١)، خاصة إذا كان موضوع الصورة ومادتها عبقري من طراز نجيب محفوظ، وكلّ عبقريّ متلوّن، يظهر لك في صورة جديدة كلّ مرة، في مخطّط إن شئت، ويُعييك في محاولة تصويره، وما لك غير أن تتأمل هذا الموضوع ومادته، تتأمل نجيب محفوظ في تراثه الضخم، الآسر، كما تأمله محمود أمين العالم. مع ذلك، سعى المؤلف، مقتفياً أثر هومي بابا، إلى تجاوز منطق الواحدية إلى منطق التبادلية؛ فمثلما تجاوز هومي بابا واحدية فرانز فانون وإدوارد سعيد في كتابه الاستشراق في النظر إلى علاقة المستعمِر – المستعمَر، تجاوز المؤلف الرؤية النقدية النمطية إلى طبيعة تلقّي نجيب محفوظ، أعني النظرة التصنيفية لأدبه (محفوظ الواقعي، الوجودي، الإسلامي ...إلخ) إلى رؤية تمازجية تبادلية (ينظر، ص٢٦).

والآن هل كتاب النقاد ونجيب محفوظ كتاب في نقد النقد؟ يرى المؤلف أن هذا المصطلح بات ذا سمعة سيئة (ينظر، ص٤٥)، ومن هنا هو يسعى إلى فكّ الارتباط به وتأسيس وظيفة جديدة لما يمارسه من عمل حتى يحقق تطابقاً مع مفهوم «النقد الشارح»؛ وذلك من خلال ملاحقة تطور هذا المفهوم منذ الوضعية المنطقية إلى ما بعد البنيوية. ويجتهد المؤلف في تشذيب فوضى المصطلح النقدي (ينظر ص٥٢ فيما

يتعلق بمصطلح meta-criticism)؛ الفوضى التي لا تقتصر على الموسوعات والمؤلفات العربية، بل تمتد إلى الموسوعات والمؤلفات النقدية الغربية. وإذا كان عدم الوعي بتطور المصطلح هو السبب الذي يعزوه المؤلف إلى هذه الفوضى في الموسوعات الغربية، فمن باب أولى أنها تنتقل إلى أزمتنا المصطلحية لتزيدها تأزّماً. فنحن غالباً ما نتبلبل في اجتراح المصطلحات وتأسيس المفاهيم الواضحة لها؛ وقد ضربتُ مرة مثلاً بمصطلح الشعرية poetics الذي أحصيتُ له في الأقل عشر ترجمات عربية في كتابي مفاهيم الشعرية. غير أن في الكتاب محاولة لبناء منظور نقدي يرتكز على مفاهيم عديدة يستقيها من هنا وهناك من النقد الغربي، في الحقيقة، يقوم الكاتب بانتقائها من هنا وهناك، وهذا ما يشي أحياناً بتفتّت منهجية الكتاب. فهو يسعى بجدّ إلى أن يطبّق نظريات مختلفة أنّى عنّت له، من هومي بابا مثلاً أو من فان جنب Van Gennep في نظرية طقوس العبور Rites of Passage (ينظر ص١٢٨)، أو من غيرهما. فالمؤلف يحرص على استثمار معرفته ومتابعته لما يُنتج في الغرب كلّما لاحت له إمكانية لتطبيق الأفكار التي عرفها.

على الرغم من أن المؤلف يحاول أن يحصر مهمته في دراسة تلقي محفوظ من منظور النقد الشارح، أي أنه يحاول أن يجيب عن سؤال محدد: كيف قُرئ نجيب محفوظ؟ فإنه يقدم لنا، عبر هذه القراءة للقراءة، قراءة لمحفوظ نفسه. فهو يقرأ اللامقروئية حين يقرأ نجيب محفوظ من خلال قرائه. إنه يقلّب ما يقوله نقاد محفوظ ويعود إلى ما يقوله محفوظ نفسه، وعبر هذا الجدل ينتج قراءته. وهذه في ظني قراءة استثنائية تتخطى قراءات نقاد آخرين لشموليتها، فهي محاولة تقرأ نقاد نجيب محفوظ كلهم، ولا تنفرد بواحد منهم كما فعل نقاد آخرون (ينظر، ص٥٦-٥٧). إن كتاب النقاد ونجيب محفوظ يكشف للقارئ حالتَه المتأسسة في القبول أو الرفض أو التأرجح بينهما؛ الأول «تابع»، والثاني «متمرد»، والثالث «عتبيّ» يقف على العتبة، بين القبول والرفض. بهذا المعنى، يكشف الكتاب وضعنا كقراء، ويدفع بنا نحو العتبة، لا يريد لنا قبولاً غير مشروط، ولا رفضاً متهوراً، إنه يسم بمساحته العريضة، وسَعَته البادية، ومتابعته وفحصه وتحليله، كلّ قارئ اختلى يوماً بالنصوص، لا سيما نصوص نجيب محفوظ المذهلة. ختاماً، أودّ أن أعيد القول إن كتاب علي بن تميم إضافة مهمة إلى «الخزانة المحفوظية».

قراءة حسن ناظم